وجوه الإعجاز

بقلم الأستاذ السباعي السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم العليا

تكلمنا في العدد الماضي عن إعجاز القرآن بعرض عام ، ووعدنا أن نتبعه بالكلام على «وجوه الإعجاز» ؛ وها نحن أولاء نفي بالوعد :

ليس بين العلماء خلاف في أن العرب عجزوا أمام تحدي القرآن إياهم فلم يأتوا بشيء مثله ، ولكن منهم من لم ينسب هذا العجز إلى ضعف فيهم أقعدهم عن المحاكاة، ولا إلى قوة بلاغية في القرآن أوقفوا أمامها خاسئين ، وإنما نسبه إلى أن الله سبحانه وتعالى صرفهم مع قدرتهم أن يحاكوه صرفا ، وهذا هو القول بالصرفة المنسوب إلى النظام، زعماً منه أن ذلك أدل على تأييد الله لرسوله ، لأن عجز القادر أقوى دلالة على هذا التأييد من عجز العاجز لقصور فيه، ولكن ذلك قول ظاهر الفساد واضح البطلان لم يقل به غير صاحبه ، ولولا أنه النظام أحد شيوخ الكلاميين وأستاذ الجاحظ - وإن كان الجاحظ لم يرتض منه هذا القول على ما ذكرناه - ما تعرض لنقده أحد من الباحثين؛ وهذه أدلة الفساد إن كان في حاجة إلى تدليل :

أولا :— لو كان عجز العرب بالصرفة ولم يكن القرآن نفسه معجزاً لخلا من كل فضيلة له على غيره من الكلام ، ولصدر عن كثير من العرب عجب ودهش من تلك القوة الخفية التي تحول بينهم وبين أن يقولوا مثله ، ولا تزال في صدورهم أفئدة لم تزلزل ، وفي أفواههم ألسنة لم تعقد ، فما بال ذلك لم يصدر عنهم وما بالهم كان الظاهر عليهم - وهم نقدة الكلام ، وصيارفة القول - العجب العاجب . فصاحة القرآن والدهشة الآخذة من بلاغته، حتى كان الكثير منهم على عناده وكفرانه يسجد لفصاحته وبيانه ، وقد أثر في ذلك الكثير وله أسلم الجم الغفير .

روى أن أعرابياً سمع قوله تعالى «فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً »، فقال :أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام ، وروى أن آخر سمع قارئاً يقرأ « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » فسجد وقال: سجدت لفصاحته ، وهذا عمر على قسوته وشدته قبل إسلامه دخل على أخته وزوجها وهما يقرآن سورة طه فرق قلبه لما سمع وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم من ساعته . وإنا لنسوق هنا حديث الوليد بن المغيرة وقد سمع من النبي عليه الصلاة والسلام « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » فرق قلبه لهذا البيان وعلمت بذلك قريش وهو فيهم من هو ، فأتاه أبو جهل

فقال له : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه كيلا تأتى محمداً بقرض لما يقول، فقال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له، فقال: وماذا أقول ؟ فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله مايشبه الذى يقول شيئا من هذا ،ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ،وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ماتحته ،قال : لا ترضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعنى حتى أفكر، فلما فكر قال: « هذا سحر يأثره عن غيره»، ذلك ماقال الوليد بن المغيرة ذو المال والولد والقوة والعدد وأحد رجلى القريتين اللذين تمنت قريش أن لو كان القرآن نزل على أحدهما كما حدث الله عنهم بقوله « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون»؛ فهو رجل مكة ورجل الطائف عروة بن مسعود، نعم ذلك ماقال بعد تفكير وتقدير وإصرار على مابه من جحد وعناد ، وهو يدل على مالم يقدر على إخفائه،فقد صرح فى حديثه أن مايقولون لايشبه شيئاً من هذا القرآن، ووصفه بما وصفه مما يدل على هذه المغايرة،وأخيراً كان حكمه عليه قوله فيه « هذا سحر يأثره عن غيره »، فجاء ذلك الحكم حاملا فى ثناياه أن القرآن قوة خارقة ، تنظر قريش إليها نظرتها إلى السحر ، وكفى بهذا من المعاندين إذعاناً وتسليما .

ومادمنا قد سقنا هذا الحديث من عدو طاغ شهادة منه على الإعجاز ـ والفضل ماشهدت به الأعداء ـ فلنسق تصوير القرآن لهذا الحادث شاهداً آخر فى الموضوع أيضاً، فقد جاء قصصه رائعاً معجزاً ؛ قال سبحانه لنبيه وقد ساءه صلى الله عليه وسلم صد قريش للوليد أن يسلم، واستسلام الوليد لها فى رميه القرآن بالسحر، يؤسيه ويصبره ويهدد هذا المفتون وبزجره : « ذرنى ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ؛ ثم يطمع أن أزيد كلا ،إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ماسقر ، لاتبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر » .

فهذه الآيات قد صورت الحادث تصويراً تشمل أطرافه فى بلاغة وقوة أداء من بيان مكانة الوليد ومقدار ماشمله لذلك من غرور جعله يقول مايقول ، وأن ذلك لم يغنه شيئاً فيما أراد الله له من سعير.

وثانياً:ـ لو كان إعجاز القرآن بالصرفة كما يقول النظام، وليس ذلك لفضيلة فيه، لزالت الصرفة بزوال زمن التحدى ولأصبح فى مكنة الفصحاء والبلغاء أن يقولوا مثله لخلوه فى ذاته من صفة الإعجاز، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ولن يكون ؛ فقد تبارى بعد ذلك فرسان الكلام وأتى

رجال النثر بغاية مافى طوقهم من بيان، ومع هذا بقى بينهم وبين ماجاء به القرآن البون الشاسع والمدى البعيد على ما أمدهم به من هدى وأنالهم إياه من رشاد، فتأيد بهذا ما كان من إجماع الصدر الأول على أن معجزة الرسول العظمى باقية مابقى الزمان وأن لامعجزة له باقية سوى هذا القرآن .

ثم كان ما كان من تدوين علوم الفصاحة والبلاغة وتعبيد الطريق إليهما لكل طالب لها راغب فيهما ، ولكن بدلا من أن يعين ماوضع لها من قواعد ، وفصل من فصول رجال الكلام إلى أن يشبهوا فيما يقولون شيئاً من القرآن ، أراهم الشقة بعيدة عنهم ، والمحاولة مستحيلة عليهم، لما تكشفت عنه تلك القواعد من مزايا القرآن التى لاتحصى، وفضائله التى لاتستقصى ، حتى لقد عمد إمام المؤلفين ورئيس البلغاء والمتكلمين عبد القاهر الجرجانى إلى تسمية ما ألفه فى هذا الباب « دلائل الإعجاز »، وليس بعد إقرار مثله إقرار ،ولا ينبئك مثل خبير، وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه .

ومن العلماء من قال إن التحدى جاء فى كلام الله القديم القائم بنفسه وهو إحدى صفاته العشرين، ومن ثم وقع العجز لأنه محال أن يتهيأ لبشر فى صفة من هذه الصفات مالله جل شأنه فيها، وليس هذا بأقل غرابة من القول بالصرفة إن لم يكن أغرب منه ، فإن الكلام القديم قبل صوغه فى هذه الصورة التى بلغ بها، لامثل له ولا وقوف للعرب على كنهه ،فكيف يتحداهم بشىء غير معروف لهم ، والتكليف بغير المعروف لاتسيغه العقول ولا تقبله الأفهام ؟ فإن قيل إن المراد تحديهم بما تضمنته هذه الصورة بعد تبليغها ، قلنا إذن الإعجاز فى المعانى لا الألفاظ، وإذن يكون سائر الكتب المنزلة معجزة كالتوراة والإنجيل، لأنها صور معبرة عن كلام الله القديم، وما قال بذلك إنسان ، ولا ذكرت تلك الكتب عن نفسها شيئاً من هذا كما ذكر وردد القرآن .

على أن فى القرآن نفسه مايفهم أن التحدى كان يطلب إلى العرب الإتيان بمثل هذه الصورة اللفظية فى نظمها وتأليفها دون النظر لمعانيها، فإنهم حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما حدث الجاحظ آنفاً ـ: أنت تعرف من أخبار الأمم مالانعرف، فلذلك يمكنك مالا يمكننا، ورموه بافتراء الكتاب على الله ، قال لهم :فهاتوها مفتريات كما هى الآية «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن الله لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون »، ومع هذا لم يرم ذلك منهم خطيب ولا طمع فيه شاعر كما أسلفنا ، وفى ذلك دلالة كافية على أن القرآن أعجز بنظمه البديع وتأليفه العجيب الذى أنتج البيان الرائع ، وأتى بالسحر الحلال .

وذهب فريق من العلماء إلى أن القرآن أعجز بما تضمنه من التنبؤ بالغيوب والكشف عما

فى الضمائر مصيباً فى ذلك كله الإصابة جميعها ؛ وبما اشتمل عليه من القصص الحق لسير الأولين وأخبار الماضين ، مما لا يقف على مثله عالم بالسير دارس للآثار . ولكن ذلك لا ينهض وحده دليلا على الإعجاز ، لأنهم إن كانوا يريدون منه أن العرب عجزت عنه لعدم قدرتها على أن تتنبأ صدقة ، ولاستحالة وقوفها على مثل ماجاء به قصص القرآن لخروج التنبؤ عن طوق البشر ؛ ولأنها من حيث القصص لم تك على علم بالسير ولم تسلك له سبيل التحصيد ، فإنا لا نرتضى ذلك أيضاً دليلا على الإعجاز الذى يجب أن يكون للقرآن ، وإلا كان ماورد فى الكتب المنزلة قبله ميزاً عن غيب أو قاصاً لقصص ، وما أكثر هذا الأخير فيها معجزاً كذلك !

وقد سبق أن هذا لم تذكره تلك الكتب عن نفسها مثلما ذكر القرآن الكريم ، وأنه لم يقل به إنسان ، كما سبق أيضاً أن رسول الله حين قالوا له : أنت تعرف من أحوال الأمم مالا نعرف ، ورموه بالافتراء ، قال : فهاتوها مفتريات ، وتحداهم بذلك القرآن فما أقدموا ولا حاولوا ، بل كان ماورد فى القرآن نفسه بعيداً عن التنبؤ والقصص — وهو معظمه — فاقداً صفة الإعجاز ، وفى مقدور العرب أن يحاكوه ؛ مع أن الإعجاز ثابت لكل كم منه تحقق فيه القدر الذى تنازل إليه التحدى من السورة القصيرة أو الآيات اليسيرة ، كما هو منطوق الكتاب وعليه يكاد ينعقد الإجماع .

أما إذا أرادوا أن محمداً وهو بشر لا يمكن أن يكون مصدر هذه الغيوب كما لا يمكن وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب أن يكون جمعة هذه الأخبار — وخاصة إذا لم يعرف عنه فى الحال الأولى سحر ولا كهانة ، ولا فى الثانية اتصال بمن كانوا على بعض العلم بهذه الآثار ؛ وأنه وهذا شأنه لا بد أن يكون صادقاً فى نسبة هذين إلى الله ، لأنه وحده المستأثر بعلم الغيوب دون غيره الملم بتواريخ الأولين ، وبذلك تثبت نبوته ، ويستحب الصدق إلى سائر النواحى من القرآن — نقول أما إذا أرادوا هذا فإنا لا نقبله دليلا على الإعجاز أيضاً بالمعنى المراد ، لأنه ينتهى بنا إلى ما انتهى إليه الأمر الأول ، إذ كل مابينهما من فارق أنا اتخذنا فى الأول عجز العرب ، وفى الثانى عجز محمد دليلا على أن بعض الكتاب يحتم عن طريق معناه أنه من عند الله ، وبذلك تثبت نبوة محمد ويتناول الصدق سائر الكتاب ، ولكنا لا زلنا على هذا وعلى ذاك بعيدين عن إثبات الإعجاز للقرآن إثباتاً ينال جميعه بالذات لا بعضه بالنظر إلى معناه ، ثم يأتى على سائره كما تقدم بطريق الاستنباط .

إلى هنا انتهينا من ذكر الوجوه الثلاثة التى لم نرتضها دليلا على الإعجاز ؛ ومن قولنا فيها يظهر أن الأولين مرفوضان جملة وتفصيلا ، أما الثالث فمع عدم نهوضه وحده دليلا على إعجاز الآيات لذات الآيات صالح أن يساق حجة للإعجاز ، ولكن على النحو الذى بيناه ، ولهذا لا يفوتنا أن نذكر شيئاً عن القصص والنبوءات ؛ أما القصص فمن أهم مظاهر القرآن وهو الكثير الغالب

فيه ، فلنبدع التمثيل له الآن إلى حيث يأتى ذكر الأغراض ، ولنكشف هنا ببعض ماورد فيه من الآيات المفهمة استحالته على رسول الله ، ولم يكن من عند الله ، والموضحة مدخله إلى الإعجاز : قال تعالى: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون» ، وقال: « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين » وقال أيضاً: «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون» ، وقال والقول فى هذا الباب كثير: « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » .

وأما النبوءات فعلى قلتها فى القرآن أدل من القصص على الإعجاز بالنهج الذى نهجناه ، وهذا شطر منها حيث لاعودة إليها فيما سيأتى من كلام ، قال الله تعالى : « الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » ، وقد غلبوا فى هذا البضع ، وقال : « لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون » ، فدخلوا كما قال ، وقال فى قصة بدر : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » كما قال فيها « إن يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » فصدق فى ذلك كما صدق فى إخباره عما فى نفوسهم من ودهم أن غير ذات الشوكة تكون لهم ، ومن تحقيق ما أراده هو من أنها لهم ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، وهذا من تنبؤه عما فى الضمائر .

ومنه أيضاً قوله على لسان رسوله فيمن تخلفوا عنه فى إحدى الغزوات « ولن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً » ، فإنهم لم يخرجوا معه بعد ، وكذا قوله لليهود : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » ، فما تمناه أحد منهم تحقيقاً لقوله بعد «ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون .

لهذا ذكر الباقلانى فى كتاب « إعجاز القرآن » عن أصحابه وغيرهم ثلاثة أوجه من الإعجاز : جعل أولها الاخبار عن الغيوب ، وثانيهما الإخبار عن قصص الأولين ، ثالثهما ما أن نشرع فيه ، رضين اياه الوجه الحق للإعجاز ، فقد قال : « والوجه الثالث أنه وبع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة إلى المدى الذى يعلم عجز الخلق عنه » ، وهو مانريد ، ولكن على خلاف معه فى التفاصيل : ؟

السباعى السباعى بيومى